التـــدبـــر

مفهومه اكتسابه إشكالياته

إعداد

د. عبد الله علي جوان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنّ القرآن الكريم يُعدّ هادي البشرية ومرشدها، فلا يوجد شيء يحتاجه البشر إلا وبينه الله سبحانه وتعالى فيه، وإنّ الله ليرفع به أقواماً ويضع به آخرين، فرفعة السلف الصالح كان مصداقاً لذلك؛ لأنهم اعتنوا بالقرآن حفظاً وتلاوة، والتصقوا به تطبيقاً وعملاً وحُسن تدبر، أما واقعنا اليوم فهو ابتعاد عن القرآن الكريم سواء على مستوى الفهم أو التطبيق أو التدبر، ولذا أذلنا الله سبحانه وتعالى، وصرنا ببعدنا عنه وضعاء بدل أن نكون أعزاء؛ لأن الله أنزل القرآن وأمرنا بتدبره، وتكفل لنا بحفظه فانشغلنا بحفظه وتركنا تدبره،، ولا عودة لهذه الأمة لسابق مجدها إلا بتنظيم علاقتها مع القرآن الكريم وفق المنهج الذي حدده لها ربها وهو منهج التدبر، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد: ٢٤ ويكمن أيضاً في علاقة الرسول الكريم مع القرآن، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي على الأرض، والصحابة رضوان الله عليهم لا يتعلمون حتى ينتهوا من الآية التي سبقتها فهماً وتدبراً، فانعكس ذلك على سلوكهم وحياتهم، ولذلك رفعهم الله.

ثم خلف من بعدهم خلف وتوالت أجيالٌ جعلت العلاقة بينها وبين القرآن محصورة على حفظه وتجويده وتلاوته بلا تدبر ولا فهم لمعانيه ومراداته، وترتب على هذا ترك العمل به أو التقصير في ذلك، فأغلب الناس أعرضوا عن القرآن، وإذا قرأوه قرأوه بدون إعمال الفكر والتدبر في آياته وهم بذلك يتفادون التدبر؛ لأنهم لا يعرفون قيمة القرآن.

ومن هنا جاء هذا البحث ليسلط الضوء على نقاط بالتدبر: مفهومه. مكانته في القرآن. أهميته. الفرق بينه وبين التفسير والفكر. اكتسابه. مشكلات تواجهنا في تدبر القرآن.نماذج من تدبر النبي ﷺ وأصحابه الكرام والسلف الصالح.

ختاماً أدعو الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وخدمة لكتابه القويم، فإن أصبت فمن الله بمنّه وفضله وتوفيقه، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان العياذ بالله.

والله من وراء القصد

التدبر

لغة: التفكر، ومادة (د ب ر) تدور حول اواخر الأمور وعواقبها وما تؤول إليه[1].

اصطلاحاً: فقد عرفه ابن القيم رحمه الله بأنه: "تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم، ولا تدبر"[2]، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص: ٢٩ ، ، وقال أيضاً: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ المؤمنون: ٦٨

وقيل أيضاً في تعريفه: "هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة"[3].

ونخلص من هذين التعريفين أن التدبر هو: التفكر باستخدام وسائل التفكير والتساؤل المنطقي للوصول إلى معان جديدة يحتملها النصّ القرآني، وفق قواعد اللغة العربية، وربط الجمل القرآنية ببعضها وربط الصورة القرآنية ببعضها أيضاً وإضفاء تساؤلات مختلفة حول هذا الربط أو ذاك.

- مكانته في القرآن:

١- يقول تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يقول ابن كثير: "يقول الله تعالى آمراً عباده بتدبر القرآن وناهياً لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ، وهذا أمر صريح بالتدبر والأمر للوجوب".

٢- إن الغرض من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر لا مجرد تلاوته، يقول تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص: ٢٩ ، قال الحسن البصري: "والله! ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يُرى له القرآنُ في خُلُق ولا عمل"[4].

٣- قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ الفرقان: ٣٠ قال ابن القيم: "هجر القرآن .... أنواع...الرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه"[1]، وقال ابن كثير: "وترك تدبره وتفهمه من هجرانه"[2].

---

[1]- انظر: مختار الصحاح للرازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٤٦م. مادة (د ب ر).

[2]- انظر: نضرة النعيم من أخلاق الرسول الكريم، إعداد **مجموعة** من العلماء، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط١، ٤ ، ١٩٩٨م الصحيفة رقم: ٩٠٩.

[3]- قواعد التدبر الأمثل للميداني، دار القلم، دمشق- سوريا، ط٤، ٢٠٠٩م. الصحيفة: ١٠.

[4]-تفسير ابن كثير، ٧/٣٦٤.

٤- قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ ﴾ البقرة: ١٢١ روى ابن كثير عن ابن مسعود قوله: "والذي نفسي بيده! إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله""[٣].وقال الشوكاني: "يتلونه: يعملون بما فيه""[٤]. ولا يكون العمل به إلا بعد العلم والتدبر.

٥- قال الشوكاني: " الأماني: التلاوة، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم وتدبر"[٥]، وقال ابن القيم: "ذم الله المحرفين لكتابه والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة وهي الأماني"[٦].

٦-القرآن الكريم لا يدعو الناس إلى التدبر في آياته فقط وإنما يحثهم أن يمارسوا التدبر العميق أيضاً وهذا مفهوم واضحٌ من قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ ﴾ النساء: ٨٢ فالآية فيها تحضيضٌ ولكنه في صورة استفهام، فالمطلوب عنا هو ترغيب المسلمين في التدبر ومراجعة كل حكم نازل أو حكمة مبينة أو عظة أو قصة أو غير ذلك في جميع الآيات المرتبطة به مما نزلت مكيتها ومدنيتها محكمها ومتشابهها، ويضموا البعض إلى البعض حتى يتبين لهم أنه لا خلاف بينها.

ومع هذا فإن الدعوة إلى التدبر لا تعني ترك حفظه وتلاوته وتجويده، لا شكّ أنّ في ذلك أجرٌ كبيرٌ، لكن المراد هنا خلق التوازن بين الحفظ والتلاوة والتجويد من جهة، وبين الفهم والتدبر من جهة أخرى، وهذا ينتج عنه ثمرة العمل به والأخذ بأحكامه، كما كان على ذلك سلفنا الصالح.

الفرق بينه وبين التفسير:

لابد أن ندرك أن التدبر غير التفسير مع العلم أن بعض العلماء المعاصرين منهم بالذات قد استعملها على سبيل الترادف، وهذا غير صحيح، إذ التفسير شيء والتدبر شيء آخر. فالتفسير شرح للمعاني وبيان لها، بينما التدبر اتعاظ بالمعنى، أي: أخذ الموعظة عن طريق فهم المعنى، واعتبار بها وتذكر، وهذا فرق كبير.

إن التفسير مأخوذ من الفسر وهو الكشف والبيان، ولذا سميت الكتب التي بينت كتاب الله تفسيراً؛ لأنها تكشف عن المعاني اللغوية والسياقية والشرعية عن طريق الأخذ بقواعد التفسير المعروفة عند أهله[١]، وهذا ما يُعرف بعلم التفسير.

---

[١]- بدائع التفسير لابن القيم، تحقيق: يسري السيد، صالح الشامي، دار ابن الجوزي، الرياض، ٢٩٢/٢.

[٢]-تفسير ابن كثير، ١٠٨/٦.

[٣]-تفسير ابن كثير، ٤٠٣/١.

[٤]-فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ. ١٠٤/١.

[٥]- المصدر السابق نفسه ١٠٤/١.

[٦]- بدائع التفسير ٣٠٠/١.

أما التدبر من التفعل، فهو: النظر إلى دبر الشيء[٢]، أي: التأمل في عواقب الأمور المتوقعة ودوابرها، أي: النظر إلى عاقبتها، وما يمكن أن تصير إليه، كما يدخل فيه النظر في دوابر الأمور الواقعة من قبل، وذلك لمعرفة أسبابها ونتائجها ومقدماتها، وهذا –بالتأكيد– لا يوجد في كتب التفسير إلا نادراً؛ لأن التدبر هو عمل قلبيٌ شخصيٌ ونظر يجول في النفس، فلا ينوب فيه أحد عن أحد، فمثلاً لا يستطيع أحد أن ينوب عن غيره في التقوى والخشوع والخوف والرجاء، وهذا منتف عقلاً وطبعاً وشرعاً.

كما أن التدبر يأتي في مرحلة ما بعد التفسير، أي بعد فهم الآية، ويكون الفهم فيه كلياً عاماً بسيطاً إذ لا يشترط فيه الوقوف على أقوال المفسرين والتحقق منها والغوص في دقائق كتب التفسير، أي: يمكن لأي شخص أن يتدبر القرآن بعد التحقق من المعنى المشهور للآية يقرؤها من أي تفسير شاء.

وبالتالي حركة نفسية باطنية تنظر إلى صيرورة النفس في الزمان والمكان بالنسبة إلى احتمالين:

- احتمال متابعة القرآن والاستسلام لأحكامه وحكمه.
- النكوص والتمرد والجحود والعصيان.

فالناظر في كلا الحالين ينظر إلى مآل الحال المحتمل.

ومن هنا كان التدبر لغة هو النظر إلى أدبار الحوادث ونتائجها، وربط للأسباب بمسبباتها فيما وقع، وفيما يحتمل أن يقع، وعلى المستوى النفسي والاجتماعي في الخير والشر سواء، فهو ضرب من المحاسبة للنفس في ضوء القرآن والمراقبة لأحوالها في صيرورتها الذاتية والاجتماعية.

فالتدبر إذاً هو النظر في الآية باعتبارها مبصراً يكشف عن أمراض النفس وعللها، ويقوم في الوقت نفسه بتهذيبها، أي بتزكيتها وتربيتها، ومن ثم كان كافياً للمتدبر أن يعلم المعنى العام للآية أو السورة مما أثر عن جمهور السلف، ليدخل في مسلك التدبر.

كما أنه لا شك في أن عالم العلم وخبرة المفسر تعطيه فرصة أكبر بكثير لتعميق التدبر في الآيات والوصول بها إلى أرقى منازل الإيمان، ولكن هذا لا يعني أن غير المختصين بالعلم والتفسير أو حتى العوام من الناس بعيدون أو محجوبون عن التدبر فمثلاً غير العالم لا يعجز عن تدبر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ

---

[١]– انظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م. الصحيفة ٢٦٠.

[٢]– انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، دار الفكر، بيروت. الصحيفة: ١٦٤. والتوقيف على مهمات التعاريف ١٦٤.

﴿ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ فاطر: ٢٧ إذا علم أن "**الجدد**" هي: الطرق والمنافذ الجبلية، وأن "**الغرابيب**" هي: الصخور السوداء[1].

إنّ صناعة التفسير والاستنباط يخصّ فئة محصورة وهم أهل الاجتهاد من العلماء ممن يفتون ويقضون في النوازل، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ النساء: ٨٣ ، وقوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ التوبة: ١٢٢ أما التدبر فهو لعامة المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ القمر: ١٧

ومن هنا نخرج بخلاصة مفادها أن المفسر عالم وفقيه مطلع على الحقائق القرآنية والأحكام الشرعية ووظيفته تبينها للناس، بينما المتدبر لا يغدو كونه متعظاً وواعظاً، وقد يجمع الله بين الخيرين، على أن العالم الحق لا يصح له إلا أن يكون عالماً ومفسراً ومتدبراً للقرآن، ومن هنا يمكن لنا أن نقول: كل مفسرٍ أو عالمٍ متدبر، وليس كل متدبر مفسر أو عالم.

- **الفرق بينه وبين التفكر:**

- التدبر ينصرف استعماله – في الغالب– إلى تأمل القرآن، بينما التفكر ينصرف استعماله إلى تأمل الكون المنظور[2]، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩١. لكن المتأمل يدرك أن نتيجة التدبر والتفكر واحدة ألا وهي الاتعاظ والاعتبار، وهو عينه ما حكاه الله عن الذاكرين المتفكرين، حيث قال: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ التفكر كالتدبر تماماً، فهو مطلوب أيضاً من غير المختصين بل حتى من العوام، كل على قدر فكره، أي أن التفكير ليس عملاً عقلياً معقداً خاصاً بعلماء الفلك والكيمياء والفيزياء والأحياء والطبيعيات، فقد يكون هناك إنساناً بسيطاً يصل إلى عِبَر وأشياء لا يصل إليها المختصون؛ لأن نتائج التفكر والتدبر هي هبة من الرحمن وهدي من المنان.

---

(1)– انظر: مختار الصحاح، مادة (ج د د)و(غ ر ب ب).

(2)– انظر: التعريفات للجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ.الصحيفة: ١٧٦. المفردات ٣٨٤.

● إن التدبر والتفكر يؤولان معاً إلى مصطلح قرآني مركزي ثالث ألا وهو التذكر، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص: ٢٩ ، ويقول أيضاً: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ ﴾ القمر: ١٧.

● يختص التدبر بتحصيل الذكرى عن طريق النظر في الآيات القرآنية، بينما يختص التفكر بتحصيل الذكرى بالآيات الكونية هذا هو الغالب، ولكن مع هذا يؤول أحدهما إلى الآخر، أي أنه توجد علاقة جدلية بينهما فالتدبر للقرآن يقودك إلى التفكر في الوجود والتفكر في الوجود يعود بك إلى القرآن، وهما في جميع الأحوال يثمران تذكراً للقلب وذكرى، ولعل في قول الرسول ﷺ : " ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"[١]، دليل على ذلك، فقوله ﷺ: (**ولم يتفكر فيها**) هو بمعنى **لم يتدبرها**؛ لأن تدبرها مفض –بالضرورة– إلى التفكر في خلق السموات والأرض، ولذلك عبر عنها بالتفكر، وأما وعيده ﷺ للممتنع عن التفكر بالويل فهو دليل قوي على **وجوب التفكر والتدبر** إجمالاً على جميع الناس العالم منهم والعامي، ولكن كل على ما يسر الله له.

– **أهميته:**

تكمن أهمية التدبر في الآتي:

١– الامتثال لأمر الله تعالى إذ أمر بذلك، حيث قال: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ ﴾ القمر: ١٧. وقال تعالـــى﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد: ٢٤

٢– القرآن بحر زاخر من الخيرات ورية من الرحمن للعالمين فهو يعطيك معان غير محدودة في كلمات محدودة، وهذا البحر الزاخر المملوء بالمعاني غير المحدودة لا ولن نستطيع أن نخرج دره إلا بالتدبر، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الكهف: ١٠٩

٣– التدبر يشحذ الهمم ويشحن النفوس نحو الخير ، ويبعدها عن الشر، فقد رُويَ عن النبي ﷺ أنه يكرر الآية الواحدة عشرات المرات، فقد روي أنه ﷺ قام الليل وهو يكرر قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ المائدة: ١١٨. وعن ابن أبي مليكة رحمه الله قال: "صحبت ابن عباس رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة فكان إذا نزل قام شطر الليل، فسُئل كيف كانت قراءته؟ قال: قرأ: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ

---

[١]– الحديث رواه ابن حبان في صحيحه حديث رقم (٦٢٠)، تحقيق: أحمد شاكر ، دار المعارف، ١٩٥٢م.

﴿ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ ق: ١٩ فجعل يرتل ويكبر في ذلك النشيج[١]. والنشيج: شدّة البكاء إذا إذا هاج على صاحبه فبكى بصوت مخنوق في صدره[٢] فصار له أزيز كأزيز القدر.

وما معنى هذا التكرار في الآية إذا لم يكن فيها تقليب الآية، والتفكر فيها، وتكمن ثمرة هذا كله في تهييج النفس على العمل وتنشيط القلب على السير وتوثيق إرادة النفس على عزائم الأعمال، فهذا هو التدبر الحق وهذا هو السر في تكرار الآيات والتفكر فيها والنظر إليها والعبرة منها.

–التدبر هو الاهتمام، وبالتالي هو التطبيق والممارسة وهي النقطة الأهم في حياة الأمة، فإذا تدبرنا القرآن نقلناه إلى حقول الممارسة على الأقل أو إلى ميادين السلوك.

–التدبر في القرآن كان سبباً في تغيير حياة كثير من الناس وأولهم الصحابة الكرام، الذين كانوا يسمعون القرآن فيقولون: والله إنه ليس بقول بشر، وما هي إلا لحظات تفكر وتدبر قليلة حتى يدخل ذلك الرجل في الإسلام، ويصبح من الصحابة الكرام، انظر إلى قصة إسلام سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ.

وأختم هذا الموضوع بقول ابن القيم –عن فوائد التدبر والتفكر-: " إنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وَتَتُلُّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وما يحبه وما يبغضه ، وصراطه الموصل إليه.... وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار... فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل ، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل ، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل ، وتبصره بحدود الحلال والحرام ، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل.... وتناديه كلما فترت عزماته وفي تأمل القرآن وتدبره ، وتفهمه ، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد، وبالجملة فهو أعظم الكنوز ، طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه"[٣].

---

[١]– انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة محمد نعيم العرقسُوسي،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان،الطبعة:الثامنة،١٤٢٦هـ، الصحيفة:٢٠٧.

[٢]– انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق مجموعة من العلماء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ. ٣٤٢/٣.

[٣]– مدارج السالكين لابن القيم، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦م. ٤٥١/١–٤٥٣. وانظر أهمية التدبر في القرآن العظيم، منقول من موقع صيد الفوائد.

- **اكتساب التدبر:**

الناس في حالنا المعاصر ثلاث طوائف:

أ- قسم أعرض عن كتاب الله، وهم خصماء الرسول ﷺ يوم القيامة.

ب- قسم يتلو كتاب الله لكنه لم يقف على إعجازه ولم يستشعر عظمته ولم يدرك حقيقته،.

ج-قسم يراجع كتب التفسير وله أهمية في فهم كتاب الله لكنه ما زال بعيداً عن التدبر.

ولعل المقصودين هنا هما القسم الثاني والثالث، إذ الأول أعرض عنه، فأنى له تدبره وتفكره.

وقد أورد الشيخ الدكتور عصام بن صالح العويد مراحل لا بد أن يمر بها من أراد أن يكتسب التدبر[1]، وهي:

- **المرحلة الأولى**: لا بد من اليقين التام أنك مع القرآن حي وبدونه ميت، مبصر وبدونه أعمى، مهتد وبدونه ضالّ.

فكل قارئ للقرآن لا بد له من هذا اليقين قبل قراءة سوره وآياته؛ لأن القرآن هو الروح وبدونه أنت ميت، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ الشورى: ٥٢ ، والقرآن هو النور وبدونه أنت أعمى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ النساء: ١٧٤ ، ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ الرعد: ١٩ ، القرآن هو الهدى وبدونه أنت ضالّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ يونس: ١٠٨.

ومن هنا كان وصف القرآن للمعرضين عنه في غاية الشدة من الذم، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾ المدثر: ٥٠. فهنا يصفهم القرآن بأنهم "**حُمُر**"، وهي جمع حمار ثم بقوله "**مستنفرة**" أي: شديدة النفار، أي هاربة ذعراً وخوفاً، القسورة هو الأسد، أي: حالهم حال الحمر الهاربة الخائفة المذعورة.

كما أننا لا بد أن نقف على الأوصاف التي وصف الله بها كتابه، فقد وصفه بالحق والهدى، والبرهان، الموعظة، الشفاء، النور، التذكرة، الرحمة، الصدق، العلي، العزيز، المبين المفصل، المحكم، العجب، البشير، النذير، البيان، التبيان .

- **المرحلة الثانية**: **الأصل في خطاب القرآن أنّه موجه إلى القلب:**

---

[1]- انظر: فن التدبر في القرآن د. عصام العويد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الصحيفة : ٧.

لقد جاء تعظيم هذه الجارحة في شريعتنا كثيراً، ولعل في حديث النعمان بن بشير ما يدل على ذلك، فعن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب**» لكان هذا كافياً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالمقصود تقوى القلوب لله، وهو عبادتها له وحده دون ما سواه بغاية العبودية له ، والعبودية فيها غاية المحبة ، وغاية الذل والإخلاص، وهذه ملة إبراهيم"[1]. ويقول ابن القيم:

قطـــــع المســـــــافة بـــــــالقلوب إليــــــه لا

بالســـــــير فـــــــوق مقاعـــــــد الركبـــــــان

فالقلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق، أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل، أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح. وما يؤكد أن القلب هو المخاطب أمور منها:

١- **أن القرآن نزل أولاً على القلب**: يقول الله تعالى: ﴿ **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾** ﴾ الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤. وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾** ﴾ البقرة: ٩٧ فأول جارحة تخاطب بهذا القرآن هي القلب، فإن استجاب القلب؛ استجاب له بقية الجوارح، وإن أعرض كانت كالرعية بلا راعي.

ولذا هيئ قلب النبي ﷺ لتلقي القرآن قبل نزوله عليه ، فعن أنس بن مالك : «**أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل – عليه السلام – وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال**: «**هذا حظ الشيطان منك**»[2].

وقد وصف الصحابة حال قلوبهم عند أول سماعهم للقرآن، فهذا جبير بن مطعم يقول عند سماعه قوله تعالى:

﴿ **أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾** ﴾ الطور: ٣٥ - ٣٦ كاد قلبي أن يطير.

٢- **كثرة تكرار لفظ القلب في القرآن**، فقد أسند إليه في الآيات ما لم يسند إلى غيره من الجوارح، فلفظ (القلب، والصدر ، والفؤاد) تكررت كثيراً ، فهناك ما يصل إلى أربعين وصفاً أسنده القرآن إلى القلب، وهي أوصاف جليلة الأثر جداً، التقوى، الخشوع، الهداية، الرأفة، والرحمة، الألفة، الانشراح، السلامة، الإنابة، الطهارة، الإخبات، الختم، الرعب، العمى، الزيغ، القسوة، النفاق، التقلب.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مطابع دار العربية، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٧/٤٨٥.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب: الإسراء بالرسول ﷺ إلى السماوات وفرض الصلاة، حديث رقم (٢٦١)(١٦٢).

٣- **أن أعظم أثر للقرآن إنما هو في القلب**: فأعظم ما يحدثه الإقبال على القرآن هو حياة القلب وصلاحه، وأعظم داء يصاب به المعرض عن القرآن هو موت القلب وقسوته، ولذا قصرت الذكرى على من كان له قلب أو اجتهد في إحضار قلبه مع القرآن كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾** ﴾ ق: ٣٧

وفي قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾** ﴾ محمد: ٢٤ تنبيه على عظم أثر الإعراض عن القرآن، فإنّ القلب يحرم من أنوار الوحي.

فهذه القلوب أوعية لا بد أن تشغل بالقرآن ولا تشغل بغيره. فقد اشتهر عن السلف قولهم : إنما العلم الخشية. قال الحسن إن قوله تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾** ﴾ العنكبوت: ٤٩ يعني: المؤمنين. قال ابن كثير: لأنه محفوظ في الصدور ميسر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظا ومعنى[(١)].

٤- **المقصود الأعظم من القرآن هو تدبر القلب له.**

قال الإمام السيوطي في الإتقان: وتسن القراءة بالتدبر والفهم فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب[(٢)]. وقد أبان المولى عن الحكمة من تنزيل هذا الكتاب فقال: ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾** ﴾ ص: ٢٩ ، واللام في قوله ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ هي لام العلة، أي: لن يكون مباركاً مباركة تامة إلا بالتدبر. ويقول تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾** ﴾ محمد: ٢٤ أي: أتت بين التدبر أو الأقفال على القلب!

ولذا ذم النبي ﷺ من قرأ بعض الآيات ولم يتفكر فيها بقلبه. إذ قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**»، فقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب، ولا يكون هم أحدكم آخر السورة.

- **المرحلة الثالثة: كيف نقرأ القرآن؟:**

لقد جاء القرآن بالكيفية التي تكون عليها قراءته، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ **وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾** ﴾ الإسراء: ١٠٦ فهذا النص فيه أمر بالمكث وترك العجلة عند القراءة، وعن مجاهد سئل عن رجلين أحدهما قرأ البقرة وآل عمران والآخر قرأ البقرة، وقيامهما واحد، وركوعهما وسجودهما واحد، وجلوسهما

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤١٨.

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي، تحقيق سعد المندوب، دار الفكر لبنان، ط١، ١٩٩٠م.٢/٢٣٩.

واحد، أيهما أفضل؟ قال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل، ثم قرأ : **﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ .....﴾** الآية. ومن الأدلة أيضاً على كيفية القراءة قوله تعالى في سورة القيامة: **﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾**، إلى قوله تعالى : **﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾**(١).

فهنا نهي عن العجلة في القراءة وتحرك اللسان بها سريعاً، وخاصة في مثل هذه الآيات التي تتحدث عن مقدمات يوم القيامة وأهواله. وعن محمد بن كعب أنه قال: "لأن أقرأ القرآن في ليلتين حتى أصبح بِ: (إذا زلزلت) و(القارعة) لا أزيد عليهما أحبُّ إلي من أن أهذ القرآن هذّاً أو قال: أنثره نثراً"(٢).

- **المرحلة الرابعة: بأي القرآن نبدأ؟:**

لقد كان منهج النبي ﷺ في تعليم أصحابه القرآن هو تعليم الإيمان أولا قبل تعليم الأحكام، وقد ورد في ذلك آثار مشهورة منها:

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ : «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة**». قال ابن تيمية: الأمانة هي الإيمان، أنزلها في أصل قلوب الرجال(٣).

ولهذا كان الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنة، والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة بل صاحبه منافق، وقيل في قوله تعالى: **﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾** أي: نور القرآن على نور الإيمان ، كما قال تعالى: **﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾**(٤).

أما المنهج الذي اتبعه الصحابة في تعلم القرآن: فقد كان البدء بالمفصل أولاً. ففي مصنف عبد الرزاق: أن عمر كان لا يأمر بنيه بتعليم القرآن، ويقول : إن كان أحد منكم متعلماً فليتعلم من المفصل فإنه أيسر(٥).

ولعل في البدء بالمفصل ميزات أهمها:

١- أنه هو الذي يغرس الإيمان في القلب كأمثال الجبال. وهذا هو الذي أشارت إليه عائشة رضي الله عنها في الحديث حين قالت: «لقد نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل

---

(١)[القيامة:١٦-١٩].

(٢) الزهد لابن المبارك، تحقيق: أحمد فريد، دار المعارج، ١٩٩٥م. الصحيفة: ٩٧.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٢٤٩/١٢.

(٤)[الشورى:٥٢].

(٥) الصنعاني: أبو بكر عبد الرزاق بن همام المصنف ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ. الأثر رقم (٦٠٣٠) ٣٨١/٣.

الحلال والحرام».

فسور المفصل هي التي تجعل القلب يثوب ويطمئن بالإيمان، فإذا جاء الحلال والحرام بعد ذلك كان السمع والطاعة لرب العالمين ولرسوله الأمين ﷺ وبين أيدينا شاهد حي لا يغيب وهم صحابة رسول الله ﷺ.

وقد جاء حزب المفصل ليقرّ ثلاث حقائق:

- توحيد الله في ربوبيته وألوهيته.
- إثبات البعث والدار الآخرة.
- الأمر بمكارم الأخلاق.

٢- أنه أيسر في الفهم؛ لأنه محكم ليس فيه متشابه إلا ما ندر. وقد سبق قول عمر: إن كان أحد منكم متعلماً فليتعلم من المفصل فإنه أيسر. وعن ابن مسعود قال: إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وإن لكل شيء باباً، وإن باب القرآن المفصل.

- مشاكل تواجهنا في تدبر القرآن:

أولاً: قراءتنا السطحية للقرآن الكريم:

وهذه المشكلة يعاني منها أناس كثيرون من أمتنا في هذا الوقت الراهن، فالأغلبية في وقتنا الحاضر يتعاملون مع القرآن كأنه حروف وكلمات ميتة تقرأ ولا تفهم، فالقارئ لا يشعر بنبض الحركة والحياة في حروف القرآن وكلماته، ومن هنا أصبح القرآن حروفاً بلا معان وكلمات بلا مفاهيم.

١- غموض الرؤية: لقد أصبح من المسلمات البديهية لدى كثير منا أن القرآن الكريم لا يمكن لأي إنسان أن يدركه فالقرآن متعال عن الإدراك البشري، فهو كتاب الله، فلا يستطيع الإنسان بما فيه من نقصان أن يصل إلى تلك القمة الرفيعة، حتى إن بعض الناس يقول: إن القرآن كله متشابه بالنسبة إلينا، ولا يجوز لنا أن نتكلم في محكمه، وإذا سئل هذا الشخص: ماذا تقول في: (قل هو الله أحد) أهي أيضاً من المتشابه؟ تراه يجيب بقوله: ما معنى أحد؟ وما اشتقاقه؟ وما الفرق بينه وبين الواحد؟ ويطيل في هذا الكلام حتى إنه ليضيف ما هو إعرابها؟

وهذا يعني أن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ النحل: ٩٠ وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ النساء: ٣٦ ،وقوله تعالى﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢ ﴾ الإسراء: ٣٢.وأمثال هذه الآيات كثير متشابهات لا يحق لأحد أن يفهمها أو يتكلم فيها.

٢- كذلك لا ننسى الاستعداد النفسي وأثره في التدبر والتعمق الفكري في هذا المجال،فالوقوف على النصوص والتعمق فيها وخاصة النصوص المتعلقة بالقضايا الفكرية المعمقة أضحى الكثير من شبابنا لا يقف عندها ولا يتدبرها، وبالتالي ضاع علينا أن الملاحظة الدقيقة والتفكير العميق هو الخطوة الأولى في أي مسيرة حضارية، وأن البعد عن التعمق والتفكر يوقع الشخص في أخطاء قاتلة.

٣- الابتعاد عن اللغة العربية لغة القرآن الكريم، كان له الأثر الكبير في عدم فهم كثير من الناس لبعض الآيات القرآنية،فهو لا يعرف المدلول الحقيقي لبعض الكلمات القرآنية، وهذا يجعله يجهل معنى الآيات التي تضمنت تلك الكلمات وبالتالي أنى له التدبر.

ثانياً: التجزئة وأثرها:

- **يعاني كثير من أبناء أمتنا الإسلامية الفهم الجزئي للقرآن الكريم**، فهؤلاء يحاولون فهم كل آية من القرآن بشكل مستقل بعيداً عن فهم الآيات الأخرى، وربطها بها، وكأن كل آية عامل مستقل وقائم بذاته، وهذا الأمر ينتج عنه أمران:

الأول: الوقوع في الخطأ، إذ فهم هؤلاء فهماً خاطئاً بعض الآيات القرآنية، فالقرآن كائن حي يرتبط بعضه مع بعض ويتفاعل مع بعض، ومن هنا لا يستطيع أي مسلم أن يفهم القرآن الكريم بشكل سليم إلا بعد أن يجمع بعضه مع بعض ويلاحظ التفاعل والارتباط فيما بين أجزائه المتفرقة، وبالتالي يتأكد لدينا أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وإذا لم يفهم القرآن فكيف يتدبره؟!.

الثاني: نقص الفهم، القرآن الكريم لم يجمع بشكل موضوعي ، أي: لم يوضع كل موضوع منه في فصل مستقل، بل إن الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع واحد تتقاسمها عشرات السور؛ لذا أصبح ضرورياً على كل من يريد أن يخرج برؤية قرآنية متكاملة حول موضوع ما أن تتكون لديه النظرة الشمولية للآيات المرتبطة بذلك الموضوع، وإلا سيصل إلى فهم ناقص لموضوعات القرآن.

ثالثاً: الفصل بين الواقع والقرآن:

لقد فهم السلف الصالح القرآن وتدبروه فأصبح عندهم كتاب حياة عرضوا عليه أعمالهم، فالواحد منهم يقرأ القرآن وكأنه مخاطب بآياته، ويستنبط من آياته بصائر واضحة يستعين بها في مسيرة الحياة الطويلة، فهو يتأمل في آياته حين يجد نفسه في مفترق الطريق فيعثر فيه على حل لمشكلته، ويجد فيه الضوء الذي يكشف من أمامه الظلمات.

ولكن توالت أجيال أساءت الفهم وضلت طريقها، هذه الأجيال نظرت إلى القرآن وكأنه كتاب لا علاقة له بواقعها، قرآن يدعو إلى الزهد في الدنيا والتقشف فيها، إذن لا قيمة للدنيا، ومن هنا كان القرآن كتاب موت بدل أن

يكون كتاب حياة، وهذا يقود إلى أن يبحث هؤلاء عن قيم الحياة ومناهجها وتعاليمها في أي مكان آخر غير القرآن الكريم.

وقد نتج عن هذا الفصل:

١- الهوى والشهوات؛ لأن الفهم الحيوي والواقعي للقرآن يعني:

- كبت الشهوات والأهواء.
- ترك الكثير من العلاقات الاجتماعية والارتباطات والتنازلات عنها، ولكن أهواء الإنسان لا ترضى بذلك، وبالتالي نفهم القرآن ككتاب ميت وننطلق في حياتنا كما نشتهي ونريد.

٢- الفهم الخاطئ للدين؛ ذلك لأن الدين الذي يأمر أتباعه بالعزلة والانزواء عن الناس والمجتمع ويهتم بالآخرة ولا يُعير الدنيا أي اهتمام، هذا الدين لا يرتبط بالحياة، وقرآن هذا الدين هو كذلك، وهكذا يجني الفهم الخاطئ للدين على الفهم الحيوي أو الواقعي للقرآن.

٣- اعتبار القرآن كتاباً متعالياً عن الإدراك البشري، فالذين يعتبرون القرآن مجموعة من الألغاز والأحاجي والرموز الغامضة لا يستطيعون أن يتدبروا القرآن بل أن يفهموه حتى.

وهكذا يصبح القرآن كتاباً ميتاً –والعياذ بالله- لا يستطيع الدفع والتحريك بعد أن كان على امتداد فترة طويلة من الزمن المحرك الأساسي للأمة الإسلامية على طريق النمو والتقدم.

- **نماذج من تدبر النبي ﷺ والسلف الصالح:**

١- سأل عبيد الله بن عمير عائشة–رضي الله عنها– فقال: "أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول اللهﷺ، قال:فسكتت، ثم قالت:لما كانت ليلة من الليالي قالﷺ: ياعائشة ذريني أتعبد الليلة لربي.قلت:والله إني لأحب قربك وأحب ماسرك.قالت:فقام فتطهر، ثم قام يصلي. قالت:فلم يزل يبكي حتى بَل ّ َحجره ،قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَل لحيته ، قالت : ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَلَّ الأرض. فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فلما رآه يبكي قال يا رسول الله !لِم َتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر ؟ قال:أفلا أكون عبداً شكوراً ، لقد نزلت عليَّ الليلة آيةٌ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار..... "الآية كلها"[1].

(١) انظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، للزيلعي: جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد، تحقيق : عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة – الرياض – ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى ١/ ٢٦١، وعزاه لابن حبان في صحيحه وابن الجوزي في كتاب الوفاء وأبو القاسم الأصفهاني في كتاب الترغيب والترهيب والثعلبي وعبد بن حميد وابن مردويه في تفاسيرهم

لا شكّ أن التفكر هنا بمعنى التدبر، وهكذا بكى النبي ﷺ في صلاته من تدبره وتفكره، كيف وقد أراه الله سبحانه وتعالى سرّاً من أسرار ملكوته، حتى بكت الأرض من بكائه ﷺ.

٢- عن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ الليلِ قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ ،جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ»[1].

ولا يخفى ما في الحديث من تضمين لآيتي النازعات: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧﴾ النازعات: ٦ - ٧. وفي هذا تدبر عجيب لهذه الحقيقة الإيمانية خاصة في جوف ليل بهيم:

- فشبه الليل بظلمة القبر من جهة، ولأن الليل من جهة أخرى هو موت لحركة النهار.
- إشارة إلى أن على المؤمن أن يجعل تفكيره في الظواهر الكونية مرتبطاً بتدبره للآيات القرآنية.
- لا شكّ أن هذا ينتج عنه تشمير وجدّ وعمل، فالآيات القرآنية يكون لها وقع على النفس الكسولة الغافلة كوقع السوط على ظهر الدابة الخاملة فتقفز مسرعة بصاحبها في الطريق إلى الله.

٣- روى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه صلى مع النبيﷺ ذات ليلة، فكان يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سَبَّحَ، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ"[2].

فهذا يُعد تطبيقاً عملياً للتدبر ظهر بالتسبيح والسؤال والتعوذ.

٤- عن أبي ذرّ ﷺ قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية، حتى أصبح يركع بها ويسجد بها[3]:{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[4]. وهكذا قدّم رسول الله ﷺ التدبر على كثرة التلاوة، فيقرأ آية واحدة فقط في ليلة كاملة.

٥- ذكر أن ابْن عمرَ شرب مَاء بَارِدًا فَبكى فَقيل لَهُ: مَا يبكيك؟ فَقَالَ: ذكرت آيَة فِي كتاب الله ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ سبأ: ٥٤ فَعرفت أَن أهل النَّار لَا يشتهون إِلَّا المَاء الْبَارِد وَقد قَالَ الله ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ الأعراف: ٥٠

---

(١)أخرجه الترمذي في سننه حديث رقم (٢٤٥٧) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م

(٢)أخرجه مسلم في صحيحه حديث رقم (٢٠٣)(٧٧٢) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣)أخرجه الإمام أحمد في مسنده، إحياء التراث ، ١٩٩٣م، ١١٧/٥.

(٤)[المائدة: ١١٨].

٦- وعن ميمون بن مهران قرأ قول الله تعالى: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ يس: ٥٩ فبكى طويلاً ثم قال: ما سمع الخلائق بعتب قط أشد منه[١].

٧- قال زائدة: صليت مع أبي حنيفة في مسجده عشاءالآخرة وخرج الناس ولم يعلم أني في المسجد وأردت أن أسأله عن مسألة من حيث لايراني أحد ، قال :فقام فقرأ ، وقد افتتح الصلاة حتى بلغ إلى هذه الآية : {فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} فأقمت في المسجد أنتظر فراغه فلم يزل يرددها حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر[٢].

٨- نزلت﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾ الزلزلة: ١ وأبو بكر الصدِّيقُ ﷺقاعدٌ، فبكى أبو بكر، فقال له رسول الله ﷺ: ما يُبْكيك يا أبا بكر؟ قال: أبكاني هذه السورةُ[٣].

٩- عن مَالِك بنَ دِينَارٍ، قَرَأَ: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ الحشر: ٢١ فبكى، وقَالَ: «أُقْسِمُ لَكُمْ لَا يُؤْمِن ُعَبْدٌ بِهَذَا الْقُرْآنِ إِلَّا صُدِعَ قَلْبُهُ»[٤].

فما أجمل هذا التدبر وما أدقّه من تفكر، وما أنفعه للنفس، أن يضع الرجل قلبه موضع الجبل، فكيف تراه يكون؟ أيكون أشد صلابة من الجبل؟ كيف بقلب يتلقى القرآن حق التلقي كيف به وهذا الجبل قد خشع وتصدع؟

هكذا تدبر النبي ﷺ وكذا أصحابه والتابعون، كانوا ينزلون الآية على أنفسهم، فجعلوا يحاسبون أنفسهم بميزان القرآن، ويتدبرون الآية بالنظر إلى أنفسهم، مشفقين من حالها ومآلها، وما قد يكون مصيرها، قصد تهذيبها وكسرة شوكة غرورها، وتصفية مقاصدها، وتجريد إخلاصها لربها، وكيف أثر ذلك على سلوكهم ومعاشهم وحياتهم نعم هو من أجل ضرب التدبر والتفكر.

وهكذا يتضح لنا ثمرة التدبر والتفكر، وهي تهيج النفس على العمل وتنشيط القلب على السير وتوثيق إرادة النفس على عزائم الأعمال، ولا شك إننا إذا أحيينا هذا المسلك في نفوسنا من جديد، وتداولنا القرآن كما تداولوه وتدبرناه كما تدبروه؛ لتدفقت أنوار النور على الظلام، ولكان لحال أمتنا في هذا العصر شأن آخر.

ولكن هذا يتطلب منا خطوات عملية، نستطيع من خلالها فهم القرآن وتدبره، ومن ذلك:

- الاهتمام باللغة العربية إذ القرآن نزل بها، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "العربية من الدين"[٥]. فمن يرد أن يتعامل مع القرآن الكريم لا بد أن يتجاوب مع لغته؛ ليفهم كتاب الله.

---

(١)حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، دار السعادة - مصر، ١٩٧٤م. ٩٢/٤.

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٣/ ٣٥٧.

(٣) انظر: جامع البيان المعروف ب تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ ٢٧٠/٣.

(٤) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢/ ٣٧٨.

(٥) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط٢، ٢٠٧/١.

- كثرة التساؤلات في القرآن الكريم، فقد قالوا قديماً: العلم خزائن ومفتاحه السؤال. وأي علم أوسع وأغزر من القرآن الكريم، فإضفاء هذه التساؤلات يعطينا فهماً أوسع للقرآن، وامتداداً زمانياً ومكانياً له.
- العبرة بعوم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه قاعدة مهمة حيث إن ما كان سبباً في نزول بعض آيات القرآن الكريم لا يقتصر على الحادثة فقط وإنما تقاس عليها كل الحوادث المشابهة لها، فأسباب النزول هي وسائل إيضاحية وليست وعاء حصرياً.
- الاهتمام بالصحيح من التفسير، ذلك أن النبي ﷺ هو الناقل عن الله، وهو المبين للقرآن الكريم.
- عدم أسر أنفسنا بالإسرائيليات التي وردت في التفاسير السابقة؛ لأنها تشكل عقبة في فهم القرآن وتخرجنا عن مقاصده العامة بالإضافة إلى المخالفات الشرعية الموجودة فيها[1].

(١) انظر: أهمية التدبر في القرآن العظيم لعبد اللطيف البريجاوي، موقع بريجاوي.

الخاتمة

إن كان لي أن أرصد نتائج هذا البحث، فإني أوجزها في النقاط الآتية:

١- إن طريق الاستفادة من القرآن وآياته والتأثر بها هو التدبر، فالقراءة الميتة للقرآن لا تعني سوى كلمات يرددها اللسان دون أن تؤثر في واقعه.

٢- إن فهم قيم القرآن وأفكاره ومبادئه كما أنزلها الله لا تكون إلا عن طريق تدبره.

٣- إن تدبر آيات القرآن له دور مزدوج في حلّ المشاكل التي يصطدم بها الإنسان، سواء أكانت فردية أم اجتماعية، فمن جانب يقوم بتطهير ما علق في نفس الإنسان من سلبيات، ومن جانب آخر يقوم بوضع الطرق والبرامج السليمة للخروج بحلّ ناجح وناجع لهذه المشكلات.

٤- إن التدبر للقرآن هو الطريق للعمل بما جاء فيه، لأن العمل بالقرآن يتوقف على فهمه، وفهم القرآن لا يمكن إلا بالتدبر.

٥- للتدبر مكانة عظيمة في القرآن وكبيرة، تجلت من خلال النصوص الحاضة على تدبره وتفهمه والتفكير فيه.

٦- هناك فرق بين التدبر والتفسير والتفكر، فالتدبر هو: التأمل في عواقب الأمور المتوقعة ودوابرها والنظر في عاقبتها، وما يمكن أن تصير إليه، بينما التفسير هو: الكشف والبيان عن المعاني، كما أن التدبر يأتي في مرحلة ما بعد التفسير فهو عمل قلبي شخصي، وهو عام لا يختص بفئة معينة دون أخرى، أما التفكر والتدبر فالعلاقة بينهما جدلية، لأن التدبر يقود للتفكر في الوجود، والتفكر في الوجود يعود بك إلى القرآن، وغالباً ما يكون التدبر عن طريق النظر في الآيات القرآنية، بينما التفكر يختص بتحصيل الذكرى بالآيات الكونية، كما أن التدبر والتفكر يلتقيان في أنهما مطلوبان من غير المختصين بل حتى العوام مطالبون بالتدبر والتفكر كل على قدر فكره وتدبره، أي لا يختصان بفئة معينة.

٧- من أهم المشكلات التي تواجهنا في تدبرنا للقرآن الكريم : القراءة السطحية له وما يترتب على هذه القراءة من فهم خاطئ وناقص، وكذلك الفهم الجزئي للنصوص القرآنية وفصل القرآن بعضه عن بعض، وكذا فصلنا بين الواقع الذي نعيشه وعدم ربطه بالقرآن وما يترتب عن هذا الفصل.

المصادر والمراجع

١. الإتقان للسيوطي، تحقيق سعد المندوب، دار الفكر لبنان، ط١، ١٩٩٠م.
٢. اقتضاء الصراط المستقيم، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط٢. (د.ت)
٣. أهمية التدبر في القرآن العظيم لعبد اللطيف البريجاوي، موقع بريجاوي. (د.ت)
٤. بدائع التفسير لابن القيم، تحقيق: يسري السيد، صالح الشامي، دار ابن الجوزي، الرياض. (د.ت)
٥. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. (د.ت)
٦. تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، للزيلعي: جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد، تحقيق : عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة – الرياض – ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى.
٧. التعريفات للجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ.
٨. تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير ابن كثير، تحقيق سامي محمد السلامة، دار طيبة، ١٩٩٩م.
٩. التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.
١٠. جامع البيان المعروف ب تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١١. الجامع الصحيح ، المعروف بصحيح الإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. (د.ت)
١٢. الجامع الصحيح للترمذي المعروف بسنن الترمذي: وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.
١٣. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، دار السعادة – مصر، ١٩٧٤م.
١٤. الزهد لابن المبارك، تحقيق: أحمد فريد، دار المعارج، ١٩٩٥م.
١٥. سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق مجموعة من العلماء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.
١٦. شرح النووي على صحيح مسلم، دار الخير، ١٩٩٦م.
١٧. شعب الإيمان للبيهقي ، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، وأشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م
١٨. صحيح ابن حبان، تحقيق: أحمد شاكر ، دار المعارف، ١٩٥٢م.
١٩. فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ.
٢٠. فن التدبر في القرآن د. عصام العويد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. (د.ت)
٢١. القاموس المحيط للفيروزآبادي تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان،الطبعة:الثامنة،١٤٢٦هـ.
٢٢. قواعد التدبر الأمثل للميداني، دار القلم، دمشق- سوريا، ط٤، ٢٠٠٩م.
٢٣. مجموع الفتاوى لابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مطابع دار العربية، بيروت، ١٣٩٨هـ.
٢٤. مختار الصحاح للرازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٤٦م.

٢٥. مدارج السالكين لابن القيم، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦م.
٢٦. مسند الإمام أحمد ، إحياء التراث ، ١٩٩٣م.
٢٧. المصنف للصنعاني: أبو بكر عبد الرزاق بن همام المصنف ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ.
٢٨. مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، دار الفكر، بيروت. (د.ت)
٢٩. نضرة النعيم من أخلاق الرسول الكريم، إعداد مجموعة من العلماء، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط١، ١٩٩٨م.